حنين الى مهد الطفولة

للا نسة أسماء فهمى
درجة شرف فى الآداب

يكاد يكون الحنين إلى « المنزل الأول » ، غريزة من الغرائز الانسانية ، تزداد قوة ورسوخا كلما توغل المرء فى عبور مرحلة الحياة . . . ولعل أعذب ذكريات الشيخ الفانى المثقل بتجارب الحياة أياما قضاها على شاطىء البريلهو مع الصغار ويجمع الاصداف ويلق الشباك للاسماك أو يصنع دورا أو قبابا من الطين والرمال ، ثم يهدمها ليعيد بناءها . . بل ان الفتى اليافع ليتضاءل أمام عينيه ما يستمتع به من قوة ومرح وصفاء عند ما تستعرض مخيلته صور عهد الطفولة الملىء بالسذاجة والحركة المتواصلة والمرح البرىء . . . وقد ينشأ المرء وضيعا فى كوخ حقير ثم يرتقى سلم العلياء ويسكن القصور ذات الحدائق الغناء ومع ذلك تتوق نفسه للحج الى مهد الطفولة وتستحيل فى نظره خشونته نعومة وقبحه حسنا وجدبه رخاء . . .

وهذا الحنين هو أساس الوطنية ونواة إعتزاز القومية لا تخلو منه الا القلوب الصماء المجردة من العطف والوفاء فلا بدع إذن أن يحط الركاب الشاعر الفياض العاطفة إذا مر باطلال الديار ليذرف دمعة أو ليستعيد ذكرى أو ليرسل نجوى قبل أن يستانف المسير ويخب المطى به عشرا . . .

ولعل أشد الحنين هو حنين ذلك الذى ينتزع انتزاعا من بين أحضان مهد طفولته ويقصى عنه قوة واقتدارا ، ثم يشغل هذا المهد العزيز الوثير أعداؤه المغتصبون بينما هو لا يجرؤ أن يحاول منه اقترابا ، إذ تحول بينهما الاستحكامات والحصون فلا يجد من وسائل الاتصال غير الذكرى والخيال . . . ولكن الذكرى التى لا أمل يصحبها ويحلوها تصبح كرياح القيظ اللافحة تحرك الأشجان كما تثير الرياح الرمال . . . والحنين يبعث الذكرى التى هى رمز الوفاء . . . .

إذن فأجنحة الذكرى أحلق فوق مهد الطفولة المقدس — فوق ربوع السودان . . تلك الربوع التى كانت ميدانا لبطولة الأجداد والآباء ، منذ عهد الفراعنة قبل أن تصبح مهداً لبراءة الطفولة ومرحها الفياض .

هنالك فى إحدى بقاع السودان عند ملتقى النيل الابيض بالازرق قضت فتاة سنى الطفولة التى مهدت لها الطبيعة هناك كل وسائل اللهو والنعيم ، فحبتها ببساط لانهاية له من الرمال الذهبية تنطلق فيه انطلاق الظبى فى الفلوات . . كما زودتها باشجار باسقة من دوم ونخيل وساسبان كانت رؤوسها حصنا منيعا للطفلة التى كانت تهرع لتسلقها بمهارة القردة وخفة النسانيس اذا أصابها ذعر أو لحقها وعيد ! ولطالما وجدت الطفولة فى أمطار السودان الغزيرة وسيوله المندفعة التى تكتسح الدور والأشجار والناس ماينير اللذة والخوف معا . . ومن ثوران الزوابع والعواصف التى كانت تنفس السيول فى الجيوت وكثرة الاسلاب ، كانت تستمد الطفولة الطليقة نوعا من التسلية الممزوجة بالدهشة ، وتنصت باهتمام الى دوى العواصف وقصف الرعود التى تعلمت كيف تأنس بها بعد ان تغلق الابواب والنوافذ دونها ! . . والحرعلى شدته وقسوته لايضير الطفولة ، لأنها بالنهار تلهو برؤية الطيور الفاتنة التى تنطلق أمامها مداعبة ومحاورة ، فتطلق على ذات الريش الأخضر منها « عصافير الجنة » والأحمر « عصافير النار » وان كانت لاترعى حرمة الأولى ولاتخشى حرارة الثانية ! بل تجد فى اللحاق بها دون جدوى . . على انها سرعان ماتشعر بالجهد فتتجه دون ندم إلى مداعبة الغزلان الوديعة الجاثمة فى الظل او معاكسة الببغاء الثرثارة أو النقردة والنسانيس المتمردة . . التى فلما تخلو منها حديقة من حدائق منازل السودان . . وفى الأصيل عندما يهب عليل النسيم وتخفض جذوة الحرارة ويسمع نغير السواقى يمتزج بأغانى السودانيين الرقيقة على ضفاف النيل ، وتمتطى صهوة مهر أو حمار وتندفع بين الادغال بمحازاة النهر العظيم بينما تتناثر عليها سلاسل ذهبية من أشعة الشمس المائلة للغروب . فتطل عليها من بين غصون الشجر مودعة وتكر راجعة إلى حيث تجتذبها اصوات الرفاق اللاعبين فوق بساط الرمل الوثير . . وسرعان ماتنبثق النجوم فى القبة الزرقاء . . ويتهادى القمر حتى يستوى على عرشه المتلألىء فى صدر السماء . . بينما تتعالى تهاليل الاطفال البيض منهم والسود سواء . . لأن الطفولة تسمو فوق فوارق الألوان والاديان والاجناس . .

وهكذا كان يسود التفاهم والوئام بين الطفولة والطير والعجماوات والاشجار والعواصف والامطار والناس — فى حين كانت ترتع آمنة فى ذلك الفضاء غير المحدود الذى حبب اليها الحرية المطلقة وطبعها

على الصراحة وجعلها تهيم بالجمال فى شتى نواحيه ...

ولكن ماهى الا عشية أو ضحاها حتى زلزلت الأرض زلزالها وقبض « سخاريب » على معول يهدم به وكر السعادة ... فاستفاقت الطفلة مذعورة فى أحد أيام شتاء سنة ١٩٢٤ ونظرت حولها فكادت تنكر الدار التى بها ترعرعت اذ هنا وهناك تكدس أمامها الأثاث فى غير نظام وعهدها بدارها نموذج التنسيق والجمال ... واذا بالأم تقبل مرتجفة واجمة وتنادى الطفلة بصوت تخنقه العبرات أن اسرعى فقد أزف وقت الرحيل عن الديار نعم ، وا أسفاه .. لقد حل بالمصريين فى السودان عام ١٩٢٤ مادهى بنى اسرائيل فى أورشليم فى القرن السادس قبل الميلاد على يد الكلدانيين ... ولم تطلب الطفلة إيضاحا لأنها أدركت بغريزتها حدوث أمر جلل .. وهل بعد الطرد والتشريد من الديار من مصاب ؟ .. تركت الطفلة حجرتها فى صمت رهيب ، وسارت حتى بلغت حديقة الدار الفسيحة فأطلت على النيل برهـــة امتزجت فيها دموعها بمياهه ، ثم توغلت بين الاشجار التى طالما احتمت بروسها كلما توعـــدتها أمها بالعقاب وتعلقت بغصونها ، وأخذت تقبلها قبلات الامتنان والوداع . وما زالت تسير حتى بلغت مكان طيورها وحيواناتها العزيزة ووقفت أمامها فى خشوع فأقبلت اليها السانيس وتعلقت بشعرها ونظرت فى وجهها كما لو كانت تستفهم سبب وجومها ، واقتربت منها الغزلان وقد كان عهد الطفلة بها شديد النفور والابتعاد فوقفت أمامها كتمثال . ولم تكد الطفلة تجثو على قدميها لتعانق اعزاءها العناق الأخير حتى أقبلت الأم مهرولة ، وجذبتها معلنة قدوم العربات . فاستسلمت الطفلة استسلام اليائس ، على أنها سرعان ما وقفت عن المسير وأجهشت بالبكاء إذ تذكرت أنها تركت وراءها عصافيرها المحبوبة دون ماء أو غذاء ، ولكن الأم رغم تأثرها العميق لم تدعها تفلت من يدها اذ كان عليها أن تلحق القطار .

بمثل هذه العجلة المؤلمة ختمت حياة الطفولة الرغدة فى السودان وبمثل هذه القسوة انتزعت الطفلة العربية من بين أحضان المهد الرؤوم دون انذار ... فلا غرو أن يتضاعف حنينها الى المهد المغتصب الذى له فوق قداسة ذكريات الطفولة السعيدة قداسة الماضى التليد : ماضى البطولة وبذل النفوس من أجل الخلود ...

اسماء فهمى

ذكرى ...

لم يطل ليلى ولكن لم أنم ، ونقى على الكرى طيف ألم ... ولكنه لم يكن طيف غرام ولا خيال غانية ، ولم يكن صدا هذا الذى عقد طرفى بالنجم ، ولا بعدا هذا الذى أغرى بى الهم ، ولكنها ذكرى !

كم ما استطعت قوى العزم ، عصى الدمع . فيصهرك الأسى وسيقهرك الدمع ، سيلاحقك هذا الطيف ، ستستبدبك هذه الذكرى

مصر فى أمر مريج : رجال هنا وبنود ، ورصاص هناك وجنود ؛ هنا حق مغلوب أبى ، وهناك باطل ظلوم قوى ؛ هنا رجال أقوياء بحقهم يزيدهم الايمان غلوا ؛ وهناك رجال أقوياء بسلاحهم يزيدهم الظلم عتوا ، ولكن الحق من روح الله فهو نصيره ، والباطل من عمل الشيطان فالخذلان مصيره .

الشوارع يومئذ تزخر بأمواج المتظاهرين الثائرين ، الشباب دائما فى الطليعة ، الرايات الخضر تتردد خفاقة بين أحضان الريح ؛ الموسيقى تعزف أنشودة « الحرية أو الموت » الصليب والهلال يتعانقان بعد أن محت وحدة الألم ما أقره فى الأذهان المريضة صاحب « فرق تسد » ، السيدات يلوحن من النوافذ بالمناديل والأعلام ، ويهتفن فى اتصال وانفعال .. بل إنى لألمح فتاة شقراء يلفها العلم الأخضر تتقدم الصفوف ، وتهتف فى صوت حزين رهيب تخنقه العبرات « وتبرات طويلة حلوة » شجرة الحرية تروى بالدماء ـ فى سبيلك يا أماه نستشهد »

لقد كنت تلميذا صغيرا يومئذ ، ولكن اسما وتاريخا ما زالا محفورين فى قلبى . أما التاريخ فهو ١٩ مارس ١٩١٩ وأما الاسم فهو « مصطفى ماهر أمين » الطالب بالسعيدية !! لقد كان مصطفى يقود الصفوف ، وصدى المدافع يصم المسامع ، والهول يأخذ على الناس كل طريق ، وقد انبثت أسباب الموت فى كل مكان ، وتقسم الجنود الشوارع يثرون على الجموع رشاش الهلاك « مصائب بعضها فوق بعض

ولكن مصطفى ماض فى عزم ، راض فى ايمان ، يحمل العلم عاليا خفاقا ، ويحتمل الألم راضيا فخورا ، عيناه تشعان نورا وصدره يلتهب نارا وسعيرا ، شفتاه تقذفان شررا ، ووالله ماردده اليأس ولا الخوف ، ولا صده العنف ولا الضعف ، يسوقه الايمان ولا